فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢١ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

يقول نيتشه مبيناً نظرته فى مجموعة القيم الاجتماعية : أنا لا أدرى إذا كانت الحياة بذاتها جميلة أو قبيحة . لا شىء عندى باطل إلا هذا النزاع المستمر بين المتفائلين والمتشائمين . وأى انسان فى الوجود يحق له أن يُقدِّر قيمة الحياة ؟ أما الأحياء فلا يقدرون لأنهم فريق من المتجادلين المتخاصمين . والأموات — وإنهم لأجدر بألا يجيبوا — لأنهم أموات . فلا أحد بقادر على إبداء قيمة الحياة ، وإننى لأجهل كل الجهل إذا كان وجودى خيراً أو عدى ؟ ولكنى فى اللحظة التى أحيا فيها الآن أريد بأن تكون الحياة فياضة مضيئة لامعة فى نفسى وخارج نفسى . فأقول إذ ذاك — نعم — لكل ما يجمِّل الحياة ويجعلها جديرة بأن تحيا . وإذا تبين لى أن الضلال والوهم يساعدانى على تذوق الحياة أقول — نعم — للضلال والأوهام . وإذا بدا لى أن الصفات السيئة مهما كانت ألوانها تساعدنى على انتصار حيوية الانسان أقول — نعم — للخطيئة والشر ، وإذا اتضح لى أن الألم هو المنبع من السرور فى تهذيب النوع الانسانى أقول — نعم — للألم وأقول — لا — لكل ما يمسخ حيوية الشجرة الانسانية ، وإذا اكتشفت أن الحقيقة والفضيلة والخير وكل ما اصطلح البشر على احترامه من تقاليد وشرائع تضر بالحياة أقول — لا — للعلم والمعرفة والخير

— ٢ —

يبحث الآن نيتشه كيف نشأت بين الناس هذه القيم الاجتماعية ويصور التأثير الذى تركته فى روح الرجل الغربى الحديث ، نقّب نيتشه فى أصول المذاهب الخلقية التى تواضع عليها البشر فألفى أن أصولها المتشابهة تعود إلى فضيلتين اثنتين توزعت عنهما كل الفضائل : فضيلة الأسياد والسلالات القوية الحاكمة ، وفضيلة العبيد والضعفاء الأذلاء

وإنك لواجد فى منشأ الحضارة الأوروبية هذا العمل الذى ولد هذين المذهبين . فهناك طائفة محبة للقتال ، وعصابة من الرجال المفترسين الذين يسطون على طائفة جانحة للسلم ، نافرة من الحرب كما هو الأمر فى الحضارة اليونانية الرومانية ، التى تلاشت إزاء هجمات الأقوام الجرمانية . إن الرجل الشديد المعتمد على نفسه ، تموج فى صدره رغبته بتعيين قيم الناس والأشياء بنفسه . وليست فضيلته إلا بهجته الراقصة بشعوره بقوته وكماله . يدعو « حسناً » من كان بمثاله شرفاً وسيادة ، ويدعو « رديئاً » من يختلف عنه . الخير عنده ما هو إلا مجموعة تلك الصفات الطيبة والخلقية التى يقدّرها فى نفسه وفى أقرانه . يُبهج نفسه أن يكون قوياً وقديراً . يعرف أن يُخضع غيره ويُخضع نفسه . يقسو على نفسه كما يقسو على سواه . يُقدس هذه الصفات عند الآخرين ويحتقر الضعف والجبن حيث ظهرا ، يسخر من عاطفة الشفقة والنزاهة ؛ ومن كل الفضائل السائدة اليوم ، لأنه لا يراها صفات تليق بسيد . يُعجب بالقوة والقسوة والخداع ، لأن هذه الصفات تحقق له ظفره فى النضال ، يحترم الميثاق عند أمثاله الأقوياء ، ويجد نفسه فى حل مع العبيد الضعفاء ، يُنكل بهم إذا أراد نكالاً ، ويسعدهم إذا أراد إسعادهم . له الأمر فى أمرهم . يبذل روحه فى سبيل قائده وأميره ، ويكرم شيخ قبيلته ، ويحترم تقاليد أهله

ألا إن الفضيلة الأرستقراطية لفضيلة قاسية متعصبة ، ولما كان الشرفاء أقلية ضئيلة فى جحافل كثيرة تتمنى الايقاع بها ، فعليهم أن يصونوا صفاتهم الخاصة التى تضمن لهم الفوز . وتقاليدهم التى اصطلحوا عليها فى زواجهم وتربية أبنائهم وارتباط بعضهم ببعض هى من التقاليد العاملة على صيانة ذريتهم من الأخطار . لهذه الذرية الأرستقراطية إلهها الذى تتجسد فيه كل فضائلها التى قادتها إلى القوة وإلى هذا المظهر الذى بدت به ، إن هذا الإله هو — إرادة القوة — التى ساقت الزعماء إلى السلطة ، وجعلت منهم أقوياء سعداء ، والعبادة التى يقومون له بها هى

تفسير ابتهاجهم بالحياة على النمط الذى يفهمون منه أنهم جيلون أقوياء

هذه الفضيلة تختلف جد الاختلاف عن فضيلة العبيد ، والضعفاء الأذلاء ، وإذا كانت الكبرياء والبهجة بالحياة ، هى العاطفة التى تموج فى صدور الأسياد ، فلا عجب إذا نما فى صدور الضعفاء التشاؤم ، ومقت الحياة ، وكره الأقوياء . الأقوياء يكيد بعضهم لبعض . أما الضعيف الغريب الذى يتصدى لهم فويل له ، لأن غريزتهم فى البأس والقوة لا تشبع إلا بسحقه ؛ لأنهم يعتقدون أنهم بما فعلوا أتوا عملاً جليلاً يحق لهم به أن يغدوا على أفواه الشعراء أسماء مُردَّدة ، وهم — فى ناظر هذا الغريب المغلوب على أمره — شياطين وقردة ؛ تحمل الرعب والهول للآمنين . إن جرأة هذه الطائفة وجنونها وقسوتها ، واحتقارها للأمان والحياة واغتباطها العميق بالتهديم وظفرها . كل هذه الصفات بنعتها أولئك المقهورون بالبربر والبربرية ، وهكذا رجل القوة والبأس والرجولة فى مذهب فضيلة الأسياد يصبح رجل اللؤم والرداءة فى مذهب فضيلة العبيد . والردىء الشرير — فى عرف الضعيف — هو كل من ارتدى رداء القسوة والعنف والرعب ، والجميل عنده كل هذه الفضائل التى يحتقرها الأسياد ؛ الفضائل التى تخفف من شدة الظلم ، وتمنع ارهاق المظلومين ، وترأف بالبائسين المتألمين ؛ فضائل الشفقة والرقة والصبر والتواضع والاحسان فضائله . إن العظيم الذى كان محارباً مخيفاً قوياً فى شريعة الأسياد ، يحول فى شريعة العبيد هادئاً حليماً ، ويصبح جديراً بالصغار ، لأنه بالغ فى توانيه عن القتال ، وبالغ فى لبسه ثوب المساكين

— ٣ —

والآن لننظر فى هذه القيم الاجتماعية التى أنشأها العبيد ، فان الشريعة المسيحية وفضائلها تولدت فى تلك البيئة . وعصابة العبيد والضعفاء والمنحطين وجدت زعيمها فى الكاهن ، ومن هو الكاهن ؟

ينبغى للكاهن أن يكون « منحطاً » ليمكنه تفهم رغائب شعبه المريض ، وهو بعد هذا يجب أن يصون سلطته وزعامته لتتجه إليه ثقة المتألمين ، ويكون حارسهم الأمين المسيطر عليهم ، وإلههم الذى منه يخشون . وهى مهنة تستلزم منه أن يحرس الضعفاء من الأقوياء ، ويعلن العداوة بينه وبين الأسياد . عداوة سلاحها سلاح الضعيف : مراوغة وكذب ورياء . فيحول بنفسه حيواناً مفترساً مروعاً كالحيوانات المفترسة التى يحاربها ، ولا تقف مهنته عندهذا الحد ، فهو مضطر إلى أن يحرس الشعب من نفسه ومن النوازع السيئة التى تتمشى عادة فى الشعوب المريضة ، يقاتل بحكمة وقسوة كل ما يخيل اليه فيه فوضى أو تفسخ أو انحلال ، يلمس هذه النوازع الملتهبة ويزيدها ضراماً دون أن يعود ضرر منها على القطيع وعلى راعى القطيع . قد تكون هذه المهنة نافعة من وجه ، لأنها تهذب بعض المفاسد ، وضارة من وجهه لأنها تقف عثرة فى سبيل حركة التقدم الطبيعى

ألا تجد « المرفأ » المرفأ الأمين الذى تأوى اليه هذه السفن المشحونة بالمرضى والمتألمين ، هو الموت . . . الموت الذى يسكن كل الآلام ويذهب بكل الأوجاع ؟ وهؤلاء الذين أظلمت فى نفوسهم قوة الحياة تبقى قوة الارادة عندهم متيقظة تعارك الفناء وتناضل العدم ، وهى التى شوهت معنى الحياة عندهم ، أمست تعدهم بقواعد للحياة جديدة ، وحيل تعمل على تسكين آلامهم ، تخدعهم عن حقيقة ألمهم ، فيحس الكاهن انتفاعاً بهذه الغريزة الطبيعية ، فيسوقها ويديرها ويثيرها حتى يجعل منها آلة سلطته وزعامته ، فيصبح زعيم جماعة لا تحمى من المرضى والمنحطين . وما هو الثمن يا ترى ؟

(يتبع)

خليل هنداوى

اعلان

تقدم الطلبات لمجلس محلى السويس لغاية آخر سبتمبر سنة ١٩٣٥ عن وظيفة معلم لقسم الكراسى والخيزران خالية بملجأ فؤاد الأول للبنين والماهية المقررة ٤ جنيهات شهرياً — وتكون الطلبات مصحوبة بالشهادات الدراسية ويتبع فى التعيين التعليمات المالية